المركز الماركسي - اللينيني للدراسات و الأبحاث و التكوين

مقدمة "حرب الفلاحين في ألمانيا"

مكتبة النجمة الحمراء

انجلس

مقدمة لكتاب
«حرب الفلاحين في المانيا» (٣٦)

مقدمة الطبعة الثانية الصادرة في عام ١٨٧٠

هذا البحث كتب في لندن في صيف ١٨٥٠ ، بتاثير مباشر من الثورة المضادة التي انتهت للتو ؛ ونُشر في العددين الخامس والسادس من مجلة « Neue Rheinische Zeitung. Politish-ökonomische Revue » (٣٧) الصادرة برئاسة تحرير كارل ماركس ، في هامبورغ ، عام ١٨٥٠ . ويطلب مني اصدقائي السياسيون في المانيا ان اعيد طبعه ، واني استجيب لرغبتهم لانه ، لأسفي ، لم يفقد بعد حاليته ، حتى في الوقت الحاضر

انه لا يدعّي اعطاء مادة مبحوثة على حدة بل على العكس فان المادة التي تتعلق بانتفاضات الفلاحين وبتوماس مولتسر مستقاة كلها من زيمرملن (٣٨) صحيح ان كتابه ينطوي على بعض النواقص ، الا انه لا يزال خير عرض اجمالي للوقائع . وفضلا عن ذلك احب العجوز زيمرمان موضوع بحثه فان تلك الغريزة الثورية التي حملته على الوقوف في كل مكان من هذا الكتاب كنصير للطبقة المظلومة ، قد جعلته فيما بعد واحداً من خيرة ممثلي الجناح اليساري المتطرف (٣٩) في فرانكفورت

اما اذا كان العرض الذي يقدمه لنا زيمرمان تنقصه رغم كل هذا ، الصلة الداخلية ؛ واذا كان لم يستطع ان يبين ان المسائل

الدينية والسياسية التي دار الجدال حولها في تلك الحقبة من الزمن كانت انعكاساً للنضال الطبقي في تلك الحقبة ؛ واذا كان لم يبر في هذا النضال الطبقي غير الظالمين والمظلومين ، والاشرار والاخيار ، وانتصار الاشرار في آخر الامر ؛ واذا كان فهمه للعلاقات الاجتماعية التي تشترط بداية النضال ومآله على السواء ، تشوبه نواقص جوهرية جداً ، فان كل هذا كان خطأ ملازماً لذلك الزمن الذي ظهر فيه الكتاب . ولكنه بالمقابل يشكل بين المؤلفات التاريخية المثالية الالمانية استثناء جديراً بالثناء ، وهو ، بالاضافة ، مكتوب باسلوب واقعي جداً بالنسبة لزمنه

ولقد حاولت في عرضي ، اذ اكتفيت برسم السير التاريخي للنضال بخطوطه الكبرى ، ان اوضح ان منشأ حرب الفلاحين ، ومواقف مختلف الاحزاب التي اشتركت فيها ، والنظريات السياسية والدينية التي حاولت هذه الاحزاب بواسطتها ان توضح لنفسها مواقفها ، واخيراً ، مآل النضال ذاته ــ ان كل هذا ينجم بالضرورة عن الظروف القائمة تاريخياً للحياة الاجتماعية لهذه الطبقات ؛ وحاولت ان ابين ، على هذا النحو ، ان النظام السياسي في المانيا في ذلك الزمن ، والانتفاضات ضده ، ونظريات العهد السياسية والدينية ، لم تكن سبباً بل نتيجة لتلك الدرجة من التطور التي بلغتها آنذاك في المانيا الزراعة والصناعة والطرق البرية والمائية والتجارة والتداول النقدي . وهذا الفهم المادي الوحيد للتاريخ لم اكتشفه انا ، بل اكتشفه ماركس ووجد تعبيراً عنه كذلك في بحثه عن الثورة الفرنسية في ١٨٤٨ــ١٨٤٩ • ، الذي صدر في « Revue »

• كارل ماركس . « النضال الطبقي في فرنسا » . الناشر .

ذاتها ، وفي مؤلفه «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت»* .

ان الشبه بين الثورة الالمانية في ١٥٢٥ وثورة ١٨٤٨ـ ١٨٤٩ قد فقا العين الى حد انه لم يكن من الممكن ابدأ آنذاك الامتناع عن اغفاله . ولكن ، علاوة على التشابـــه في مجـــرى الاحداث ، الذي يتجلى في كون قوات الامراء ذاتها قد قمعت انذاك والآن مختلف الانتفاضات المحلية الواحدة تلو الاخرى ، وعلاوة على التشابه ، الذي يبلغ احيانا حد المضحك ، في سلوك برجوازية المدن في كلا الحالين ، ظهرت ايضا مع ذلك الفوارق بدقة ووضوح :

«من استفاد من ثورة ١٥٢٥ ؟ ـ الامراء . من استفاد من ثورة ١٨٤٨ ؟ ـ العاملان الكبيران النمسا وبروسيا . فوراء الامراء الصغار في عام ١٥٢٥ ، كانت تقف البرجوازية الصغيرة التي ربطتهم بنفسها بالضرائب ، ووراء العاملين الكبيرين في عام ١٨٥٠ ، وراء النمسا وبروسيا ، تقف البرجوازية الكبيرة المعاصرة التي تخضعهما لنفسها بسرعة بواسطة دين الدولة . ووراء ظهر البرجوازية الكبيرة تقف البروليتاريا»**

ولكنه يجب القول ، مع الأسف ، ان هذه الموضوعة قد اولت البرجوازية الالمانية من الشرف اكثر بكثير من اللزوم .ففي النمسا ، كما في بروسيا ، سنحت لها الفرصة لكي «تخضع لنفسها» النظام الملكي «بسرعة بواسطة دين الدولة» غير ان هذه الفرصة لم تستغل في اي مكان وزمان .

---

* راجع هذه الطبعة الجزء الاول ، صص ١٤٨ـ٢٩٩ الناشر .

** فريدريك انجلس . «حرب الفلاحين في المانيا» . الناشر .

ونتيجة لحرب ١٨٦٦ (٤٠) سقطت النمسا كهدية في يد البرجوازية ولكن البرجوازية لا تعرف كيف تسود ؛ انها عاجزة ، وليست قادرة على شيء . انها تستطيع امراً واحداً فقط هو الاستشاطة حنقاً وغضباً على العمال ما ان يتحركوا . وهي لا تزال باقية في دست الحكم لسبب واحد فقط هو ان المجريين بحاجة اليها .

اما في بروسيا ؟ صحيح ان دين الدولة قد تعاظم بسرعة مدوخة ، وان العجز المالي امسى ظاهرة دائمة ، وان نفقات الدولة تنمو سنة بعد سنة وان البرجوازية تملك الاغلبية في المجلس ، وانه لا يمكن بدون موافقتها لا زيادة الضرائب ولا عقد القروض ، ــ ولكن اين هو اذن سلطانها على الدولة ؟ منذ بضعة اشهر فقط ، عندما جابهت الدولة من جديد عجزاً مالياً ، سنحت للبرجوازية فرصة مفيدة للغاية . فلو ابدت على الاقل بعض الثبات والصلابة ، لاستطاعت ان تحرز تنازلات كبيرة ولكن ماذا تفعل ؟ انها تعتبر انها احرزت تنازلا كافياً لان الحكومة تسمح لها بان تضع عند قدميها زهاء ٩ ملايين ، لا لسنة واحدة فقط ، ــ كلا ، ــ بل سنوياً وفي جميع الازمنة اللاحقة

انا لا اريد ان اوجه الى «الليبراليين ـ القوميين» (٤١) المساكين الجالسين في المجلس ، من اللوم والتقريع اكثر مما يستحقون . وانا اعرف ان الذي كان يقف وراءهم ، اي جمهور البرجوازية ، قد تخلى عنهم . فان هذا الجمهور لا يريد ان يحكم . وهو لا يزال يتذكر جيداً جداً عام ١٨٤٨

اما لماذا تبدي البرجوازية الالمانية مثل هذه الجبانة المذهلة ، فهذا ما سنتطرق اليه فيما بعد

ان الموضوعة الواردة اعلاه قد ثبتت صحتها تماما فيما

يخص نقاطها الاخرى . فمنذ عام ١٨٥٠ اخذت الدويلات تتراجع بوضوح متزايد ابداً الى المؤخرة ، ولا تقوم الا بدور اداة لاجل الدسائس البروسية والنمساوية ؛ وبين النمسا وبروسيا ، طفق الصراع من اجل السيطرة يحتدم بضراوة مشتدة ابداً ، واخيراً ، في عام ١٨٦٦ ، وجد هذا الصراع حلا له عن طريق العنف ، وبفضل هذا الحل ، تحتفظ النمسا لنفسها باقاليمها بالذات ، وتخضع بروسيا لنفسها الشمال كله مباشرة وبصورة غير مباشرة ، بينما تقف الدويلات الجنوبية الغربية الثلاث* وراء الباب حتى اشعار آخر .

وفي كل هذه التمثيلية لا يتسم باهمية بالنسبة للطبقة العاملة الالمانية الا ما يلي

اولا ، بفضل حق الاقتراع العام ، توفرت للعمال امكانية ارسال ممثليهم الى الجمعية التشريعية مباشرة .

ثانياً ، اعطت بروسيا مثالا ذا عبرة بابتلاعها ثلاثة تيجان اخرى** هي من نعمة الله . اما انها ، بعد هذه العملية ، لا تزال تملك ذلك التاج الطاهر النقي ، من نعمة الله ، الذي ادعت بانه لها فهذا ما لا يصدقه حتى الليبيراليون القوميون انفسهم .

ثالثا ، لا يوجد بعد في المانيا غير خصم جدي واحد فقط للثورة هو الحكومة البروسية

ورابعاً ، ينبغي على الالمان النمساويين الآن ، في آخر المطاف ، لن يطرحوا على انفسهم السؤال التالي : من يريدون ان يكونوا ، نمساويين ام المانا ؟ ما الذي يعز عليهم اكثر ، المانيا ام ملحقاتهم خارج المانيا في الجانب الآخر من نهر ليتا ؟ فمن

---

* باڤاريا ، بادن ، فورتمبرغ . الناشر .

** هانوفر ، هيسن-كاسل ، ناساو . الناشر .

زمان بعيد ، كان واضحاً انه ينبغي عليهم ان يتخلوا اما عن هذا واما عن ذاك. ، ولكن الديموقراطية البرجوازية الصغيرة كانت دائماً تطمس هذا الامر

اما فيما يتعلق بمختلف القضايا الهامة المتنازع عليها المقترنة بعام ١٨٦٦ ، والتي لا يزال يناقشها «الليبيراليون-القوميون» حتى الآن الى حد تقز منه النفس ، من جهة ، و«حزب الشعب» (٤٢) من جهة اخرى ، فان تاريخ الاعوام التالية قد اثبت ان وجهتي النظر كلتيهما لا تتعاديان بضراوة بالغة الا لانهما الطرفان المتناقضان لضيق الافق نفسه

ان عام ١٨٦٦ لم يغير شيئاً تقريباً في العلاقات الاجتماعية في المانيا . فان الاصلاحات البرجوازية القليلة ـ نظام واحد للمقاييس والموازين ، حرية التنقل ، حرية الصنائع ، الخ ..ـ وكل هذا في حدود مقبولة بالنسبة للبيروقراطية ، لا تبلغ حتى ما تملكه البرجوازية في البلدان الاوروبية الغربية الاخرى منْ زمان بعيد ، ولا تمس الشر الاكبر ، نظام الامتيازات البيروقراطي (٤٣). اما بالنسبة للبروليتاريا ، فان الممارسة البوليسية العادية قد جعلت جميع القوانين بشان حرية التنقل وحق الجنسية والغاء جوازات السفر ، والخ .. مجرد وهم من الاوهام .

ولقد كان لنهوض الصناعة والتجارة الذي بدأ منذ ١٨٤٨ في المانيا ، واتساع بناء السكك الحديدية ، وتطور التلغراف والملاحة المحيطية اهمية اكبر بكثير مما كان للتمثيلية في عام ١٨٦٦ ومهما كانت هذه النجاحات لا تضاهي النجاحات التي احرزتها انجلترا وحتى فرنسا في الوقت ذاته ، فقد كانت بالنسبة لالمانيا نجاحات لم يسمع بمثلها من قبل واعطت في بحر عشرين سنة اكثر مما اعطته من قبل مائة سنة كاملة . فالآن فقط ،

غدت المانيا مدفوعة قطعا وبلا عودة الى ميدان **التجارة العالمية** . وقد ازدادت رساميل الصناعيين بسرعة ، وتبعا لهذا تعاظم ايضا شان البرجوازية الاجتماعي وبلغت **المضاربة** ، التي هي اصدق علامة على الازدهار الصناعي ، نطاقا واسعا ، قارنـــة بعجلتهـــا المظفرة الكونتات والدوقات ان الراسمال الالماني ــ طيب الله ثراه ! ــ يبني الآن السكك الحديدية الروسية والرومانية في حين ان السكك الحديدية الالمانية كانت منذ خمسة عشر عاما تطلب الصدقة من اصحاب المشاريع الانجليز . فكيف امكن اذن ان يحدث انذاك هذا الواقع ، وهو ان البرجوازية لم تظفر بالسيادة السياسية ايضا ، وانها تبدي مثل هذه الجبانة الفائقة حيال الحكومة ؟

ان تعاسة البرجوازية الالمانية تتلخص في كونها تتاخر بحكم العادة الالمانية المفضلة فان زمن ازدهارها قـــد صادف تلك المرحلة التي كانت فيها برجوازية البلدان الاوروبيـــة الغربيـــة الاخرى قد امست في حالة انحطاط في المجال السياسي ففي بريطانيا لم تستطع البرجوازية ان تدخل ممثلها الخاص برانت في الحكومة ، الا بتوسيع حق الاقتراع (٤٤) ، ــ وهو تدبير كان لا بد لعواقبه ان تضع حدا لكل السيادة البرجوازية . وفي فرنسا ، حيث البرجوازية لم تبسط سيادتها ، بوصفها برجوازية ، بوصفها طبقة بمجملها ، الا في بحر سنتين ، سنة ١٨٤٩ وسنة ١٨٥٠ ، وفي ظل الجمهورية ، لم تستطع ان تمدد اجل وجودها الاجتماعي الا بالتنازل عن سيادتها السياسية للويس بونابرت وللجيش . والحال ، نظرا للتاثير المتبادل المتعاظم الى ما لا نهاية له بين بلدان اوروبا الثلاثة الاكثر تقدما ، لم يبق الآن من الممكن ان تبسط البرجوازية في المانيا سيادتها السياسية بهدوء وسلام اذا كانت قد استنفدت قواها وولى زمنها في انجلترا وفي فرنسا .

ان الخاصة المميزة التي تتسم بها البرجوازية بالقياس الى جميع الطبقات الاخرى التي كانت سائدة من قبل تقوم على وجه الضبط في وجود نقطة انعطاف في تطورها لا تؤدي من بعدها كل زيادة لاحقة في وسائل باسها ، وبالتالي في رساميلها بالدرجة الاولى ، الا الى تفاقم عجزها اكثر فاكثر عن بسط سيادتهـــا السياسية «وراء ظهر البرجوازية الكبيرة تقف البروليتاريا» . فبقدر ما تطور البرجوازية الصناعة والتجارة ووسائل المواصلات ، بقدر ما تو ّلد البروليتاريا . وفي لحظة معينة لا تقع في كل مكان في آن واحد ولا تحل بالضرورة في الدرجة نفسها من درجات التطور تبدأ البرجوازية تلاحظ ان مرافقها الدائب ـ البروليتاريا ـ قد شرع يتفوق عليها . ومنذ هذه اللحظة ، تفقد البرجوازيـــة القدرة على بسط سيادتها السياسية بلا منازع ، فتفتش لنفسها عن حلفاء تعمد ، حسب الظروف ، اما الى مشاطرتهم سيادتها واما الى التنازل لهم عنها بكليتها

وفي المانيا ، وقعت نقطة الانعطاف هذه بالنسبة للبرجوازية في عام ١٨٤٨ . صحيح ان البرجوازية الالمانية قد خافت آنذاك من البروليتاريا الالمانية اقل مما خافت من البروليتاريا الفرنسية . فان معارك حزيران ١٨٤٨ (٤٥) في باريس قد بينت لها ما ينتظرها ؛ فان تهيج البروليتاريا الألمانية كان قد بلغ آنذاك درجة من القوة تكفي لكي تثبت لها انه توجد هنا بذور بوسعها ان تعطي غلة مماثلة ؛ ومنذ هذه اللحظة ، تحطمت حدة الاعمال السياسية التي تقوم بها البرجوازية . وشرعت تفتش عن حلفاء وتبيع نفسها منهم باي ثمن كان ، ـ ولكنها حتى ايامنا هذه لم تخط الى الامام اي خطوة .

ان جميع هؤلاء الحلفاء هم بطبيعتهم رجعيون . انهم السلطة

الملكية مع جيشها وبيروقراطيتها ، انهم الاريستقراطية الاقطاعية الكبيرة ، انهم اليونكر (٤٦) الصغار في الاقاليم النائية ، انهم ، اخيراً ، القسس والكهنة . ومعهم جميعاً عقدت البرجوازية صفقات واتفاقات ، لمجرد ان تحافظ على جلدها الثمين ، ما دام لم يبق لها ، في اخر الامر ، ما تتاجر به . وبقدر ما تتطور البروليتاريا وبقدر ما تعي نفسها كطبقة وتتصرف كطبقة ، بقدر ما تزداد البرجوازية جبانة وعندما احرزت ستراتيجية البروسيين السيئة للغاية في معركة سادوفا (٤٧) النصر على ستراتيجية النمساويين الاشد سوءاً ، مهما بدا ذلك غريباً ، كان من الصعب القول من ذا الذي تنفس الصعداء اكثر من غيره ، ــ البرجوازية البروسية التي تحطمت هي ايضاً في الوقت نفسه في معركة سادوفا ، ام البرجوازية النمساوية

ان برجوازيينا الكبار يسلكون في عام ١٨٧٠ تماما كما سلك البرجوازيون المتوسطون في عام ١٥٢٥ اما البرجوازيون الصغار والمعلمون الحرفيون واصحاب الدكاكين ، فانهم سيبقون دائما مثلما كانوا من قبل .انهم يأملون عن حق او عن غير حق بان يشقوا طريقـــا لانفسهم الى صفوف البرجوازيـــة الكبيرة ، ويخافون من تدهورهم الى صفوف البروليتاريا . وهم ، لتارجحهم بين الخوف والأمل سيحاولون ، اثناء النضال ، انقـــاذ جلدهم الثمين وسيلزقون بعد النصر بالمنتصر فهذه هي طبيعتهم

منذ عام ١٨٤٨ تطور نشاط البروليتاريا الاجتماعي والسياسي مواكبا نهوض الصناعة خطوة فخطوة وان الدور الذي يضطلع به العمال الالمان في الوقت الحاضر في نقاباتهم وفي الجمعيـــات التعاونية وفي المنظمات والاجتماعات السياسية ، وفي الانتخابات وفيما يسمى الريخستاغ ، ان هذا الدور وحده يبين اي انعطاف

جرى بصورة غير ملحوظة في المانيا في السنوات العشرين الاخيرة . وللعمال الالمان يعـــود اكبر الشرف : فهم وحدهم دون غيرهم توصلوا الى ارسال العمال وممثلي العمال الى البرلمان بينـــا لم يستطع الفرنسيون ولا الانجليز حتى الآن التوصل الى ذلك

ولكن البروليتاريا لم تنم بعد ، هي ايضا ، الى درجة لا تقبل المقارنة مع عام ١٥٢٥ فان الطبقة التي تضطر الى العيش من الاجرة بوجه الحصر وطيلة حياتها كلها لا تزال ابعد من ان تؤلف اغلبية الشعب الالماني وهي بالتالي لا تستطيع الاستغناء عن الحلفاء . والحـــال ، لا يمكن التفتيش عن هـــؤلاء الا في وسط البرجوازية الصغيرة وحثالة البروليتاريا* في المدن ، والفلاحين الصغار والعمال الزراعيين .

البرجوازيون الصغار . سبق ان تكلمنا عنهم انهـــم غير مامونين ابداً ، وعندما يتم احراز النصر ، عند ذاك فقط ، يرفعون عقيرتهم بالصياح بصورة لا تصدق في مشارب الجعة . ومع ذلك ، توجد بينهم عناصر طيبة جداً تنضم من تلقاء نفسها الى العمال

حثالة البروليتاريا التي تمثل نفايات من العناصر المتفسخة اخلاقيا ونفسانيا من جميع الطبقات والتي تتركز بصورة رئيسية في المدن الكبيرة ، هي اسوأ جميع الحلفاء المحتملين ان هؤلاء الاوباش ماجورون كليا ومزعجون اشد الازعاج بلجاجتهم . واذا كان العمال الفرنسيون قد كتبوا على بيوتهم ابان كل ثورة « Mort aux voleurs ! » ـ «الموت للصوص !» واعدموا رميـــا بالرصاص عدداً كبيراً من هؤلاء اللصوص ، فان هذا لم يحدث بسبب تقديسهم للملكية ، بل نتيجة لصحة فهمهم بانه ينبغي

---

* لومبن ـ بروليتاريا (Lumpen-Proletariat) المعرب .

لهم قبل كل شيء ان يتخلصوا من هذه العصابة ان كل زعيم عمالي يستخدم هؤلاء الاوغاد حرساً له او يعتمد عليهم ، يثبت بهذا وحده انه خائن للحركة

الفلاحون الصغار ـ فالفلاحون الكبار ينتسبون الى البرجوازية ـ اصناف مختلفة

اما انهم **فلاحون اقطاعيون** لا يزالون ملزمين بتقديم الاتاوات الاقطاعية للاسياد الاخيار وبعد ان فوتت البرجوازية فرصة تحريرهم من التبعية الاقطاعية ، ـ وكان ذلك واجباً عليها ، ـ لن يكون من الصعب اقناعهم بانه ليس في وسعهم ان يأملوا بالخلاص الا على يد الطبقة العاملة

واما انهم **مستأجرون** . وفي هذه الحالة ، يقوم القسم الاكبر من نفس العلاقات القائمة في ارلنده . ولقد تعاظم بدل الايجار الى حد انه يكاد من المتعذر على الفلاح ، اذا كانت الغلة متوسطة ، ان يعيل نفسه وعائلته ، وانه يموت تقريباً من الجوع ، اذا كانت الغلة رديئة ، ولا يستطيع دفع بدل الايجار ، فيصبح من جراء ذلك تابعاً تماماً لمالك الارض ورهناً باهوائه . ولمثل هؤلاء لا تفعل البرجوازية شيئاً الا متى اضطروها الى ذلك فمن ينقذهم اذن ان لم يكن العمال ؟

يبقى الفلاحون الذين يستثمرون **قطعاً صغيرة من اراضهم بالذات** . انهم في غالبية الاحوال مرهقون بالرهون العقارية (٤٨) الى حد انهم يتبعون المرابين كما يتبع المستاجرون مالكي الارض . ولا يبقى لهم هم ايضاً الا ايراد ضئيل جداً ، ناهيك بانه غير ثابت ابداً تبعاً لجودة الموسم ورداءته وهم يستطيعون ، اقل ما يستطيعون ، ان يعلقوا آمالاً ما على البرجوازية ، لان البرجوازيين ، الرأسماليين المرابين ، هم الذين يمتصون منهم كل عصارتهم .

ولكنهم بمعظمهم يتمسكون بشدة بملكيتهم ، رغم انها في الواقع لا تخصهم ، بل تخص المرابين . ومع ذلك يجب اقناعهم بانهم لن يستطيعوا الخلاص من المرابين الا متى حولت الحكومة التابعة للشعب جميع الرهونات العقارية الى دين للدولة وخفضت الفائدة المئوية بهذه الطريقة . والحال ، لا يمكن ان يحقق هذا غير الطبقة العاملة .

وحيثما تسود ملكية الارض المتوسطة والكبيرة ، يشكل **العمال الزراعيون** اكثر الطبقات في الريف عدداً . هكذا هو الحال في عموم المانيا الشمالية والشرقية ، **وهنا** يجد عمال المدن الصناعيون **حلفاءهم الطبيعيين واكثر حلفائهم عدداً** . وكما ان الرأسمالي يقابل العامل الصناعي ، كذلك يقابل مالك الارض او مستاجر الارض الكبير العامل الزراعي . والتدابير ذاتها التي تساعد فريقاً ، ينبغي لها ان تساعد الفريق الآخر . ولا يستطيع العمال الصناعيون ان يتحرروا الا اذا حولوا رأسمال البرجوازية اي الخامات والآلات والادوات الضرورية من اجل الانتاج وكذلك وسائل العيش ، الى ملكية اجتماعية اي الى ملكية لهم ، الى ملكية يستغلونها بصورة جماعية كذلك لن يستطيع العمال الزراعيون التخلص من الفقر المدقع الرهيب الا اذا تحقق في المقام الاول الشرط التالي وهو انتزاع الارض ، التي هي الموضوع الرئيسي لعملهم ، من الملكية الخاصة للفلاحين الكبار وللاقطاعيين ـ الاكبر منهم ـ وتحويلها الى ملكية اجتماعية تستغلها بصورة جماعية جمعيات العمال الزراعيين وهنا نقترب من القرار الشهير الذي اتخذه مؤتمر بال العمالي العالمي والقائل انه ينبغي ، لما فيه مصلحة المجتمع ، تحويل ملكية الارض الى ملكية جماعية ، وطنية (٤٩) . وكان هذا القرار يقصد بصورة رئيسية البلدان

التي تقوم فيها الملكية الكبيرة للارض وما يرتبط بها من اقتصاد كبير على القطع الكبيرة من الارض ، مع العلم انه يوجد في كل من هذه الملكيات الكبيرة سيد واحد وعدد كبير من العمال الاجراء ولكن هذا الوضع لا يزال هو السائد على العموم في المانيا ، ولهذا جاء قرار مؤتمر بال في حينه تماما بالنسبة لالمانيا على وجه الضبط فضلا عن انجلترا ان البروليتاريا الزراعية ، عمال الريف ، انما هم تلك الطبقة التي تعطي العدد الاكبر من المجندين لجيوش الملوك ؛ انما هم تلك الطبقة التي ترسل الى البرلمان في الوقت الحاضر ، بحكم حق الاقتراع العام ، عدداً كبيراً من الاقطاعيين واليونكر ؛ ولكنهم في الوقت نفسه تلك الطبقة التي تقف اقرب من غيرها الى جانب عمال المدن الصناعيين ، وتشاطرهم شروط العيش ذاتها ، بل تجد نفسها في وضع ادنى من وضعهم ان هذه الطبقة عاجزة لانها مقسمة ومبعثرة ؛ بيد ان الحكومة وفئة النبلاء تعرفان جيداً قوتها المخفية وتعرفانها الى حد انهما تحاولان قصداً وعمداً دفع المدارس في طريق الانحطاط لكي تبقياها غارقة في لجة الجهل والامية ان ايقاظ هذه الطبقة واجتذابها الى الحركة ، تلك هي اقرب والح مهمة تواجهها الحركة العمالية الالمانية . وما ان يتعلم سواد عمال الريف فهم مصالحهم الخاصة حتى يغدو من المستحيل في المانيا قيام اي حكومة رجعية سواء أكانت اقطاعية ام بيروقراطية ام برجوازية

كتبها انجلس حوالي ١١ شباط (فبراير) ١٨٧٠ صدرت في الطبعة الثانية لمؤلف انجلس «حرب الفلاحين في المانيا» الصادرة في ليبزيغ ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧٠

تصدر حسب نص الطبعة الثانية

تمت الترجمة نقلاً عن الالمانية

ملحق لمقدمة ١٨٧٠
لاجل الطبعة الثالثة الصادرة في ١٨٧٥

كتبت الاسطر السابقة منذ اكثر من اربعة اعوام . وهي لا تزال تحتفظ الآن باهميتها . وما كان صحيحاً بعد معركة سادوفا وتقسيم المانيا يتاكد كذلك بعد معركة سيدان (٥٠) وتاسيس الامبراطورية الالمانية المقدسة للامة البروسية (٥١) فان تمثيليات ما يسمى بالسياسة الكبرى ، التمثيليات «التي تهز العالم» يمكنها ان تحدث مثل هذه القلة من التغيرات في اتجاه حركة التاريخ

ولكن في مقدورها بالمقابل ان تعجل سير هذه الحركة وفي هذا الصدد ، احرز المتسببون «بالاحداث التي تهز العالم» والمشار اليها آنفاً ، دون قصد منهم ، نجاحات هي ، بكل تاكيد ، امر غير مرغوب فيه اطلاقاً بالنسبة لهم انفسهم ، ولكنه يترتب عليهم ان ياخذوها بالحسبان سواء شاؤوا ام ابوا

ان حرب ١٨٦٦ قد هزت بروسيا القديمة من اسسها بالذات . فبعد عام ١٨٤٨ ، اصبح اخضاع عنصر الاقاليم الغربية الصناعي المتمرد ـ البرجوازي والبروليتاري على السواء ، ـ للانضباط القديم ، من جديد ، يتطلب قدراً غير قليل من الجهد ؛ ومع ذلك ، امكن ذلك ، ومن جديد اصبحت مصالح اليونكر من الاقاليم الشرقية الى جانب مصالح الجيش هي المصالح السائدة في الدولة . وفي عام ١٨٦٦ ، غدت المانيا الشمالية الغربية كلها تقريباً بروسية . وفضلا عن الخسارة المعنوية التي لا تعوّض ، والتي مني بها التاج البروسي الذي هو من نعمة الله ، بعد ان ابتلع

ثلاثة تيجان اخرى* هي ايضاً من نعمة الله ، ــ انتقل الآن مركز ثقل المَلَكية بصورة ملحوظة الى الغرب . فبالملايين الخمسة من سكان مقاطعة الراين ووستفاليا ، أُلحق في البدء ٤ ملايين من الالمان المضمومين بواسطة الالحاق المباشر ، ثم ٦ ملايين من الالمان المضمومين بواسطة الالحاق غير المباشر ، بواسطة حلف المانيا الشمالية (٥٢) وفي عام ١٨٧٠ ، اضيف الى هذا ٨ ملايين اخرى من الالمان الجنوبيين الغربيين (٥٣) ، وبالتالي غدت «الامبراطورية الجديدة» تضم ١٤,٥ مليوناً من البروسيين القدماء (من الاقاليم الستة الواقعة شرقي الالب حيث كان يعيش ، بالاضافة الى هؤلاء ، مليونان آخران من البولونيين) مقابل زهاء ٢٥ مليوناً تجاوزوا من زمان الاقطاعية اليونكرية البروسية القديمة وعليه كانت انتصارات الجيش البروسي بالذات هي التي احدثت التغير الحاسم في كل اساس صرح الدولة البروسية ؛ واكثر فاكثر امست سيادة اليونكر امراً لا يطاق حتى بالنسبة للحكومة . ولكن التطور الصناعي الجاري بسرعة عاصفة ازاح ، في الوقت نفسه ، الصراع بين اليونكر والبرجوازية الى المؤخرة ، ودفع الى المقدمة الصراع بين البرجوازية والعمال ، ولذا حدث انعطاف كامل في الاسس الاجتماعية للدولة القديمة من الداخل ايضاً لقد كان الصراع بين النبلاء والبرجوازية ، الصراع الذي حافظت فيه المَلَكية على التوازن ، الشرط الاساسي للمَلَكية التي راحت تتصدع ببطء منذ عام ١٨٤٠ . ولكن منذ اللحظة التي لم يعد من المقصود فيها حماية النبلاء من هجوم البرجوازية ، بل حماية جميع الطبقات المالكة من هجوم الطبقة

* هانوفر ، هيسن-كاسل ، ناساو . الناشر .

العاملة ، كان لا بدّ للمَلَكية المطلقة القديمة ان تتحول كليا الى شكل للدولة مرسوم خصيصاً لهذا الغرض ، اي الى **مَلَكية بونابرتية** . وانتقال بروسيا هذا الى البونابرتية بحثته انا من قبل في مكان آخر («بصدد مسالة السكن» ، الطبعة الثانية ، ص ٢٦ وما يليها) . ولكنه لم تكن ثمة ضرورة في هذا البحث للاشارة الى واقع يتسم هنا باهمية جوهرية جداً ، ألا وهو بالضبط ان هذا الانتقال كان **اكبر خطوة الى الامام** خطتها بروسيا بعد عام ١٨٤٨ ، ــ نظراً لان بروسيا كانت قد تاخرت واي تاخر عن ركب التطور العصري . ومع ذلك ظلت دولة نصف اقطاعية ، في حين ان البونابرتية هي ، على كل حال ، شكل عصري للدولة يفترض ازالة الاقطاعية . وهكذا يتعين على بروسيا ان تقدم على وضع حد للبقايا الاقطاعية الكثيرة الموجودة عندها وان تضحي بطبقة اليونكر بوصفهم طبقة . وكل هذا يتحقق ، طبعاً ، باخف شكل وعلى انغام الاغنية المحبوبة : «الى الامام على الدوام ، بلا عجلة» هكذا هي الحال ، مثلا ، فيما يتعلق بمرسوم الدوائـــر السيئ الذكر . فهو يلغي الامتيازات الاقطاعية ليونكر بمفرده في اراضي ممتلكاته ، ولكن لمجرد ان يبعثها بصورة امتيازات لمجموع كبار مالكي الاراضي في اراضي الدائرة كلها فان جوهر الامر يبقى هو هو ، ولكنه يترجم فقط من اللهجة الاقطاعية الى اللهجة البرجوازية انهم يحولون اليونكر البروسي القديم قهراً وقسراً الى ضرب من سكوير• بريطاني ، ولكنه لم يكن لديه اي دافع على الاطلاق لمعارضة ذلك بوجه خاص ، لان هذا وذاك غبيان بالقدر نفسه

• سكوير ــ ملاك عقاري . المعرب .

وهكذا كتبت لبروسيا قسمة فريدة ،—وهي ان تنجز في نهاية هذا القرن ، بشكل البونابرتية المستطاب ، ثورتها البرجوازية التي بدأت في سنوات ١٨٠٨—١٨١٣ والتي خطت خطـــوة الى الامام في سنة ١٨٤٨ واذا سارت جميع الامور بيسر وانتظر العالم بهدوء ، وعشنا نحن زمنا كافيا ، فاننا ، اغلب الظن ، سنرى نحو عام ١٩٠٠ ، ان الحكومة البروسية قد قضت بالفعل على جميع المؤسسات الاقطاعية في بروسيا وان بروسيا بلغت اخيراً ذلك الوضع الذي وجدت فيه فرنسا نفسها في عام ١٧٩٢

ان القضاء على الاقطاعية ، المعبر عنه بشكل ايجابي ، يعني اقامة النظام البرجوازي ان التشريع يتبرجـــز بقدر ما تنهـــار امتيازات النبلاء وهنا نقترب من النقطة الاساسية في موقف البرجوازية الالمانية من الحكومة . فقد رأينا ان الحكومة مضطرة الى تطبيق هذه الاصلاحات البطيئة والطفيفة . ولكنها تصور امام البرجوازية كلا من هذه التنازلات الصغيرة بصورة تضحية قدمتها ، بصورة نعمة منتزعة من التاج بجهد كبير ويتعين عليهـــم ، هم البرجوازيين ، ان يتنازلوا من جهتهـــم عن شيء مـــا في صالح الحكومة . والبرجوازيون يقبلون بهذا الخداع رغم ان كنه الامور واضح كفاية بالنسبة لهم ، ومن هنا ينبع ذلك الاتفاق الضمني الذي ترتكز عليه في برلين بصورة غير علنية جميع المناقشات في الريخستاغ وفي المجلس البروسي : فمن جهة ، تعدل الحكومة القوانين في مصلحة البرجوازية بخطى السلحفاة ، وتزيل ما يعترض تطور الصناعة من عقبات اقطاعية وعقبات ناجمة عن التبعثر الى دويلات ، وتقر وحدة العملة والمقاييس والموازين ، وتطبق حرية الصنائع ، الخ .، وتقر حرية التنقل واضعة بذلك قوة العمل في المانيا تحت تصرف الرأسمال بلا حد ولا قيد ، وتحمي التجارة والمضاربة ؛

ومن جهة اخرى تمنح البرجوازية الحكومة السلطة السياسية الفعلية بكاملها ، وتصوت بالموافقة على الضرائب والقروض والتجنيدات وتساعد في صياغة جميع القوانين الجديدة بشان الاصلاحات بحيث تبقى السلطة البوليسية القديمة على الافراد غير المناسبين بكامل قوتها . ان البرجوازية تشتري تحرّرها الاجتماعي التدريجي بالتخلي على الفور عن سلطتها السياسية . وبديهي ان الدافع الرئيسي الذي يدفع البرجوازية الى القبول بهذا الاتفاق ليس الخوف من الحكومة بل الخوف من البروليتاريا

ومهما كانت تصرفات برجوازيتنا في ميدان السياسة حقيرة ، فانه لا يجوز مع ذلك ان ننكر انها شرعت ، في آخر المطاف ، تؤدي واجباتها في ميداني الصناعة والتجارة . فان نهوض الصناعة والتجارة الذي اشرت اليه في مقدمة الطبعة الثانية* قد استمر مذ ذاك بمزيد من الشدة . وما جرى في هذا الصدد في منطقة الراين-وستفاليا الصناعية منذ عام ١٨٦٩ لا سابق له حقا وفعلا في المانيا ويذكر بازدهار المناطق الصناعية الانجليزية في مستهل هذا القرن . والشيء نفسه سيحدث في ساكسونيا وسيليزيا العليا وفي برلين وهانوفر وفي المدن الساحلية . وقد صار عندنا ، في آخر الامر ، تجارة عالمية وصناعة كبيرة حقيقية ، وبرجوازية عصرية حقيقية ؛ ولكنه وقعت عندنا بالمقابل ازمة حقيقية وتكونت كذلك بروليتاريا حقيقية ، قوية .

ان دوي المدافع في معارك شبيخرن ومارس-لاتور (٥٤) وسيدان وكل ما يرتبط به سيتسم في تاريخ المانيا في سنوات ١٨٦٩-١٨٧٤ باهمية اقل بكثير في نظر المؤرخ المقبل من اهمية

---

* راجع هذا المجلد ص ص ٩٩-١١١ . الناشر .

تطور البروليتاريا الالمانية البسيط الهادى ، والمتصاعد مع ذلك بلا انقطاع . ففي عام ١٨٧٠ ، اضطر العمال الالمان الى تقديم امتحان جدي ، عنينا به الاستفزاز البونابرتي الحربي وعاقبته الطبيعية ، الحماسة الوطنية الشاملة في المانيا فان العمـــال الاشتراكيين الالمان لم ينخدعوا لحظة واحدة فلم تتلقفهم موجة التعصب القومي الشوفيني ووسط نشوة النصر المحمومة ، المسعورة ، حافظوا على رباطة الجاش وطالبوا «بصلح عادل مع الجمهورية الفرنسية دون اي الحاقات» ، بل ان اعلان الاحكام العرفية عجز عن اجبارهم على لزوم الصمت . ولم يجد اي صدى عندهم لا التولع بالمجد العسكري ولا الثرثرة حول «عظمة الامبراطورية الالمانية» . وظل تحرير البروليتاريا الاوروبية كلها هدفهم الوحيد . ويمكن القول عن كامل الحق والصواب : ان العمال لم يقدموا بعد في اي بلد بمثل هذا النجاح الباهر امتحانا بمثل هذا العسر .

وعقب الاحكام العرفية في زمن الحرب ، حدثت محاكمات بتهمة الخيانة الكبرى وبتهمة اهانة صاحب الجلالة والموظفين ، واخذت تتفاقم اكثر فاكثر المناكدات البوليسية في زمن السلم . فعلى العموم ، كان يوجد ثلاثة او اربعة على الاقل من اعضاء هيئة تحرير «Volksstaat» (٥٥) في السجن في آن واحد ؛ وفي مثل هذا الوضع كانت الجرائد الاخرى . وكان لا بدّ لكل خطيب حزبي معروف نوعا ان يمثل مرة واحدة على الاقل في السنة امام المحكمة فتصدر بحقه على الدوام تقريبا حكما جزائيا . وكانت اعمال النفي والمصادرة وحل الاجتماعات تنهمر مثل البـر د . ولكن عبثا ؛ فان كل معتقل او منفي كان يحل مكانه شخص آخر على الفور ؛ وعوضا عن كل اجتماع محلول ، كان ينعقد اثنان جديدان وبرباطة الجاش وبالتقيد الدقيق بالقوانين كانوا يستنفدون قوى التعسف

البوليسي تارة هنا وطوراً هناك . وكانت جميع الملاحقات تؤدي الى نتائج معاكسة : فهي لم تستطع ان تحطم حزب العمال او ان تلوي عوده على الاقل ، ولم تفعل غير ان اجتذبت اليه الانصار الجدد ووطدت تنظيمه . وفي كل مكان ، تقدم العمال في نضالهم سواء ضد السلطات او ضد مختلف البرجوازيين ، الدليل على تفوقهم الفكري والاخلاقي وبرهنوا ، لا سيما باصطداماتهم مع من يسمون «باراباب العمل» ، على انهم الآن ، هم العمال ، اناس مستنيرون وان الراسماليين اناس جهلة ناهيك بانهم في معظم الاحوال يخوضون النضال بفكاهة هي خير دليل على ايمانهم بقضيتهم وعلى ادراكهم لتفوقهم . ولا بدّ لهذا النضال الذي يخوضونه بهذا النحو في تربة هياها التاريخ ، من ان يعطي نتائج كبيرة . ان نجاح انتخابات كانون الثاني (يناير) هي ظاهرة استثنائية في تاريخ الحركة العمالية المعاصرة (٥٦) ، ولذا كانت مفهومة تماما تلك الدهشة التي استثارتها في عموم اوروبا .

ان للعمال الالمان افضليتين جوهريتين يتفوقون بهما على عمال بقية اوروبا . الاولى هي انهم ينتسبون الى ارقى شعب في اوروبا في حقل النظرية ، وانهم حافظوا في انفسهم على ذلك الفكر النظري الذي فقدته كليا تقريبا الطبقات المسماة بالطبقات «المتعلمة» في المانيا ان الاشتراكية العلمية الالمانية ، اي الاشتراكية العلمية الوحيدة التي وجدت يوما ، ما كانت نشأت قط لولا الفلسفة الالمانية التي سبقتها ، ولولا فلسفة هيغل على الخصوص . ولولا الفكر النظري عند العمال ، لما كانت هذه الاشتراكية العلمية دخلت قط الى مثل هذه الدرجة في دمهم وصلبهم ، كما نرى ذلك الآن . اما اي مدى شاسع لا قياس له بلغته هذه الافضلية ، فهذا ما تبينه ، من جهة ، تلك اللامبالاة

بكل نظرية ، التي هي سبب من الاسباب الرئيسية التي تفسّر سير الحركة العمالية البريطانية الى الامام بمثل هذا البطء ، رغم التنظيم الرائع في بعض المهن ، ــ وما يبينه ، من جهة اخرى ، ذلك الارتباك وذلك التارجح اللذين بذرت البرودونية بذورهما ، بشكلها الاولي عند الفرنسيين والبلجيكيين ، وبشكلها الكاريكاتوري ، الذي قدمه باكونين ، عند الاسبانيين والايطاليين

اما الافضلية الثانية فقوامها ان الالمان قد دخلوا في الحركة العمالية تقريباً بعد الجميع . وكما ان الاشتراكية النظرية الالمانية لن تنسى ابداً انها تقف على اكتاف سان سيمون وفوريه واوين ، ــ هؤلاء المفكرين الثلاثة الذين يُعتبرون ، رغم كل خيالية وكل طوباوية مذاهبهم ، من عداد اعظم الادمغة في جميع الازمنة والذين استبقوا بصورة عبقرية كثرة لا تحصى من تلك الحقائق التي نقدم الآن البرهان العلمي على صحتها ، ــ كذلك يجب على الحركة العمالية العملية الالمانية الا تنسى ابداً انها تطورت على اكتاف الحركة البريطانية والحركة الفرنسية ، وانه سنحت لها الفرصة لكي تستفيد بكل بساطة من التجربة التي كدستاها بثمن غال ، ولكي تتجنب الآن الاخطاء التي كان يستحيل آنذاك تجنبها في غالبية الاحوال . واين كنّا الآن لولا مثال التريديونيونات البريطانية ونضال العمال الفرنسيين السياسي ، لولا تلك الدفعة الهائلة التي اعطتها كومونة باريس على الاخص ؟

ومن باب العدل ، يجب ان نقول ان العمال الالمان قد استفادوا بمهارة خارقة من فوائد وضعهم فللمرة الاولى منذ وجود الحركة العمالية ، يخاض النضال بطريقة منهاجية في جميع اتجاهاته الثلاثة المنسقة والمترابطة فيما بينها النظري والسياسي ، والاقتصادي العملي (مقاومة الراسماليين) . وفي

هذا الهجوم المركز ، كما يقال ، تكمن قوة الحركة الالمانية ومنعتها .

ان العمال الالمان يجدون انفسهم في الظرف الراهن على رأس النضال البروليتاري ، وذلك ، من جهة ، بسبب وضعهم المميز هذا ، ومن جهة اخرى ، بسبب الخصائص الجزيرية التي تختص بها الحركة البريطانية وبسبب قمع الحركة الفرنسية بالعنف اما خلال اي مدة ستسمح لهم الاحداث بشغل هذا المركز المشرّف ، فذلك ما يستحيل التنبؤ به . ولكنهم ما داموا يشغلونه ، فانهم ، كما ينبغي الأمل ، سيؤدون ، كما يصح ، الواجبات الملقاة على كواهلهم . ولهذا الغرض لا بد من مضاعفة الجهود في جميع ميادين النضال والتحريض . وسيكون من واجب الزعماء على الاخص ان يثقفوا انفسهم اكثر فاكثر في جميع القضايا النظرية وان يتحرروا اكثر فاكثر من تاثير الجمل والتعابير التقليدية الملازمة للمفهوم القديم عن العالم ، الا يغيب عن بالهم ابداً ان الاشتراكية تتطلب ، منذ ان اصبحت علمية ، تناولها كعلم ، اي دراستها . والوعي المكتسب على هذا النحو ، والذي يتزايد وضوحاً باستمرار ، انما ينبغي نشره بين جماهير العمال بجهد مشتد ابداً وتقوية تنظيم الحزب وتنظيم النقابات وترسيخهما اكثر فاكثر . صحيح ان الاصوات التي نالها الاشتراكيون في كانون الثاني (يناير) تمثل جيشاً كبيراً نسبياً ، ولكنها لا تزال ابعد من ان تمثل اغلبية الطبقة العاملة الالمانية؛ ومهما كانت الحماسة التي تثيرها نجاحات الدعاية بين سكان الريف كبيرة ، فلا يزال يترتب هنا بالذات فعل الكثير والكثير الى ما لا نهاية له . ولهذا لا يجوز التعب في النضال ، بل يجب انتزاع مدينة تلو مدينة من العدو ، ودائرة انتخابية تلو دائرة . ولكنه ينبغي قبل كل شيء الاحتفاظ

بروح اممية حقا تنفي ظهور اي شوفينية وطنية وترحب بسرور بكل خطوة جديدة في الحركة البروليتارية ، ايا كانت الامة التي قامت بهذه الخطوة واذا ما سار العمال الالمان على هذا النحو في المستقبل ايضا . فانهم لن يسيروا على رأس الحركة ــ فليس ابداً من مصلحة الحركة ان يسير عمال اي امة من الامم على رأسها ، ــ بل سيشغلون مكانـــاً مشرّفـــاً في صفوف المناضلين ؛ وسيكونون على اتم الاهبة اذا ما تطلبت منهم فجاة محن قاسية او احداث عظيمة قدراً اكبر من الرجولة ، قدراً اكبر من التصميم والعزيمة

فريدريك انجلس

لندن ، اول تموز (يوليو) ١٨٧٤

صدرت في كتاب
Friedrich Engels. « Der Deutsche Bauernkrieg ».
Leipzig, 1875

تصدر حسب نص الكتاب
تمـــت الترجمـــة نقـلاً عن الالمانية